

## للدفاع بفاعلية عن السلام

### يجب معالجة التشويهات الإعلامية\*

المهندسة سوسن جبر أيوب خليل\*\*

الأستاذ كورنيليس هولسمان\*\*\*

الإعلام سلاح ذو حدين؛ إذ يمكنه النهوض بدور في التقريب بين أناس من حضارات وأديان مختلفة، وكذلك تعميق الانقسام، وتقوية نزعة التمييز، وتضخيم الإساءات والالتهامات الزائفة، والتحريض على السلوك العنصري والمتطرف، وتقويض جهود بناء أسس التسامح والسلام. وهذه أمور تزيد من التوترات، وتباعد بين المجتمعات والأمم، وتدفع الناس إلى الاعتقاد بوجود صدام بين الحضارات؛ بل إنها تمهد الطريق للعنف، كما سنرى فيما يأتي مع بعض الأمثلة التي وفرها مركز تقارب الثقافات والترجمة الذي يتخذ من القاهرة مقراً له.

كثيراً ما نسمع أن علينا أن نهمل مثل هذه التشويهات الإعلامية ولا نقلق لها بالاً. وهذا يشبه سلوك النعامة. فالتشويهات الإعلامية ليست عديمة الأذى. وحتى لو كانت الآثار الأولية ضئيلة، فيجب ألا نمناها أي فرصة للنمو تؤدي إلى إيمان الناس بالانقسام ما بين الخير والشر؛ ما قد يخلق بعدئذ صداماً بين الحضارات. ويجب أن نتجنب خلق نبوءة تحقق ذاتها، وذلك من خلال التعامل مع المشكلات بصورة سليمة في مرحلة مبكرة.

إن الأمثلة الثلاثة التي سنوردها هنا هي:

1. القصص التي تجعل الناس يعتقدون أن المسلمين يستهدفون المسيحيين، خالقة بذلك شعوراً من الإشفاق على الذات بين المسيحيين والغضب بين المسلمين باستخدام الإشاعات، والمزاعم غير المؤكدة، وإهمال السياقات الاجتماعية والثقافية والتاريخية.<sup>(1)</sup>
2. الصحافة الغربية المتحيزة التي خلقت جواً مسموماً بين المسلمين والمسيحيين في

\* ورقة قدمت إلى المعهد الأوروبي للبحر الأبيض المتوسط في برشلونة/ إسبانيا؛ وستنشر في يونيو 2007 مجرودة

**Quaderns de la Mediterrània**, nr. 8 . Special Dossier « Communication and Mutual Perceptions ». Dir. Maria-Angels Roque, Institut Europeu de la Mediterrània, Barcelona 2007. <http://www.iemed.org/publicacions/aquaderns.php>

\*\* رئيسة مركز تقارب الثقافات والترجمة في القاهرة " CIDT "

\*\*\* مدير مركز تقارب الثقافات والترجمة في القاهرة ورئيس تحرير تقارير العرب و الغرب (www.cawu.com).

(1): تعبير الإشفاق المسيحي على الذات مأخوذ من مقابلة مع المطران منير، AWR ، 2004، الأسبوع 36، المقالة رقم 28.

«الكشخ»، وهي قرية في صعيد مصر تحولّ فيها نزاع محدود إلى مذبحة استقطبت اهتماما عالميا، وتسبب في اعتقاد الرأى العام أن المسلمين كانوا يستهدفون المسيحيين.

3. استخدام الإعلام لأغراض متعمدة بهدف خلق توترات لتحقيق مآرب أخرى. ومثال ذلك استخدام الإخوان المسلمين للمشاعر الدينية لإسقاط مرشح مسيحي في الانتخابات البرلمانية.<sup>(2)</sup>

## (1) الإشفاق المسيحي على الذات وغضب المسلمين:

إن المشكلة في الإعلام الغربي، وغالبًا ما تصدر عن منشورات مسيحية صغيرة ، هي الاستيعاب غير النقدي للقصص التي يرويها أفراد مسيحيون حول اضطهادهم، من دون إدراك أو رغبة في الاعتراف بأن هذه القصص قد تكون مدفوعة بأهداف أخرى، مثل الرغبة في الهجرة، أو محاولة الحصول على دعم مالي من الغرب، أو الضغط سياسيا على السلطات المصرية تحت الاعتقاد بأن ذلك قد يساعدهم في تحقيق أهدافهم. وعادة ما تعكس القصص مشاعر مسبقة من العداء المتأصل للمسلمين، وتُعمّق مثل هذه المشاعر. ومعظم القصص التي تروى عن مسلمين يُجبرون فتيات مسيحيات على اعتناق الإسلام تقع ضمن هذا السياق. مثل هذه القصص تحدث أثرا مرتدًا. فتُصدر ردودًا غاضبة من المسلمين قد تتعكس بسهولة على علاقاتهم مع المسيحيين الآخرين الذين لا علاقة لهم بهذا النوع من التغطية الصحفية. إن المزاعم الزائفة أو المضخمة خطيرة لأنها تضعف مشاعر التعاطف لدى الناس تجاه القضايا الحقيقية المهمة، كما حدث مع تقارير صحيفة **الوطني** حول بعض المسيحيين الذين لم يتمكنوا من الحصول على بطاقة هوية مسيحية، أو بعض المسلمين المحليين الذين يحاولون إبعاد مسيحيين عن أرض سيطروا عليها بوضع اليد بعد أن كانت مستنقعات وهم الذين قاما بزراعتها لسنوات.<sup>(3)</sup>

## (2) الصحافة الغربية المتحيزة:

لعبت الصحافة الغربية المتحيزة بدور رئيسي في التفريق بين المسلمين والمسيحيين في الكشخ. ففي العام 1998، تسبب لعب القمار وتناول الكحول في مقتل اثنين من القرويين المسيحيين، وتلا ذلك تحقيق للشرطة استخدمت فيه أساليب فظة عادة ما تستخدم في التعامل

(2): يتضمن أرشيف EDC تقارير مختلفة لـ تقارير العرب والغرب حول مزاعم زائفة لفتيات مسيحيات أبحرن على اعتناق الإسلام، وحول الكشخ واشتباكات الإسكندرية ومئات الملخصات لمقالات إعلامية حول هذه المواضيع.

(3): وطني، 4 مارس 2007، ص 13؛ وطني الدولي، 4 مارس 2007، ص 1. ولدينا ملف كامل لهذه القضية، وقد تحدثنا مع كاهن هذه القرية الصغيرة.

مع الطبقات الاجتماعية الدنيا. ولم تكتف صحيفة **صنڤاي تلغراف** وبعض وسائل الإعلام الغربية الأخرى بانتقاد أساليب التحقيق هذه؛ بل نشرت تقارير معتمدة على مزاعم عاطفية أحادية الجانب. وقد تسبب ذلك في ردود غاضبة في وسائل الإعلام المصرية جعلت الناس يعتقدون أن الإعلام الغربي يستهدف المسلمين، وأن الأقباط قد نسجوا قصصا زائفة تناسب هذا الهدف. وقد خلقت هذه التقارير مناخا سبب توترات طائفية جديدة في الكشخ أدت إلى سقوط 20 قتيلا مسيحيًا وفتيلًا مسلمًا واحدًا في شهر كانون الثاني/يناير من العام 2000. كما كان لتلك التقارير تداعيات كبيرة خارج مصر جعلت نسبة كبيرة من الغربيين يعتقدون أن ذلك كان مثالًا على استهداف المسلمين للمسيحيين، مُبسطين بذلك قضية معقدة، ومُدعمين التحيز الغربي ضد الإسلام.

### (3) خلق التوترات المتعمدة:

في شهر أكتوبر من العام 2005، شهدت مصر نزاعا طائفيًا آخر خلقت وسائل الإعلام في منطقة محرم بك في الاسكندرية. فكان بعض المسيحيين، قبل ذلك بعامين، قد صوروا بالفيديو على قرص مدمج مسرحية كنسية تحذر المسيحيين من اعتناق الإسلام، باستخدام وصف كاريكاتيري للإسلام. كان القرص محدود التوزيع، بشكل رئيسي في الكنيسة المحلية، ولم يثر مشكلات طائفية. لكن خلال الحملة الانتخابية للفوز بمقعد برلماني عن دائرة في الاسكندرية، اكتشف بعض المواطنين، الذين اعتد على نطاق واسع أنهم كانوا من مناصري الإخوان المسلمين، أمر القرص المدمج، ورأوا فيه فائدة لإثارة مشاعر عدااء للمرشح المسيحي. وقد زُوِّدت صحيفتا **الأسبوع** و**الميدان**، وهما مطبوعتان مصريتان صغيرتان، بنسخ من القرص، ما تسبب في مقالات -تضافر نشرها مع التوزيع المتعمد للقرص المدمج في المنطقة- أشعلت فتيل أعمال شغب معادية للمسيحيين نتج عنها تخريب مادي كبير وإثارة مخاوف المسيحيين المحليين. ومرة أخرى، فقد كُتبت تقارير عالمية عن هذه التوترات مهتت السبيل لهجوم على ثلاث كنائس في شهر إبريل 2006 أسفر عن قتل مسيحي. وهكذا تعرضت مصر للانتقاد من وسائل الإعلام مرة أخرى.

ماذا يمكن إذا للقراء في مصر وفي الغرب، ممن لا يعرفون التفاصيل الخاصة بهذه القصص، أن يعتقدوا؟ بالطبع، سيرى المسلمون المصريون أن الغرب يتعمد التركيز على أحداث بعينها لأنها تغذي مشاعر التحيز ضد الإسلام والمسلمين؛ وسيرى المسيحيون المصريون أنهم مستهدفون، ويرى الغربيون، كعادتهم، أن الإسلام والعنف مترابطان. إن هذه الصور المشوهة تهمل أن حقوق المسيحيين المصريين قد تحسنت كثيرا خلال القرنين الماضيين؛ إذ تحول المسيحيون من أقلية محمية إلى مواطنين متساوين مع المسلمين المصريين، على الرغم من المعارضة الموجودة بالتأكيد في بعض الدوائر في المجتمع. كما إن الصور المشوهة لا تعكس

الكيفية التي أدار بها المسلمون والمسيحيون نضالهم المشترك ضد الاستعمار البريطاني، وضد الاحتلال الإسرائيلي لصحراء سيناء، والكيفية التي يعيش بها الناس حياتهم اليومية معًا. إن الأحداث رهيبية، وهي تحتاج تعاملًا مناسبًا؛ لكنها يجب ألا تقدم على أنها النمط السائد. فهذا لا يقود إلا إلى تعميق الآثار السلبية التي كانت الأحداث قد أوجدتها.

يتضح من الأمثلة السابقة أن التوترات الطائفية تتغذى، إلى حد كبير، على التغطية الإعلامية الرديئة، وعلى إثارة المشاعر، والتركيز على التوترات من دون اعتبار للسياق، وتضخيم القضايا، والاستشهاد عادة بتصريحات غاضبة وعاطفية لأشخاص مجهولين لا تستند إلى حقائق. لكن، هل يهتم هؤلاء الصحفيون أو النشطاء فعلاً بالحقيقة؟ ألا يحميهم الاستشهاد بأقوال آخرين، وهم أنفسهم يخفون، مرتاحين، آراءهم الحقيقية خلف ما يقول هؤلاء؟ لو أنهم كانوا يهتمون حقا، لحاولوا البحث بشكل أعمق فوجدوا حقيقة أكثر تعقيدا من القصة التي رووها. إن قصص التمييز والاضطهاد تقوي مشاعر كثير من المسيحيين المصريين بأن المشاق التي يعانون منها جراء الفقر والظلم الاجتماعي، اللذين يتأثر بهما المصريون جميعا، مرتبطة بمعتقدهم الديني. وهذا الاعتقاد بالتعرض للاضطهاد والتمييز يُنقل إلى المراسلين الصحفيين؛ ما يزيد في تغذية قصص الاضطهاد. إن ذلك لا يساعد في تعزيز أواصر العلاقات الاجتماعية الجيدة. وإن التخريب الذي تسببه هذه القصص لا يقتصر على مصر وحدها، فهي تعمق المشاعر المعادية للمسلمين في الغرب، كما أنها تؤثر في العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين في أوروبا مثلا.

لماذا تظهر هذه التوترات حول المجتمعات الدينية دائما؟ إن المجتمع المصري شديد التدين. وهكذا، فإن ربط المشكلات الاجتماعية والإعلام المشوه بالدين يثير المشاعر العميقة. وقد أعد مركز تقارب الثقافات والترجمة تقريرا جدليا يظهر كيفية المساجلات العنيفة التي يقوم بها أحيانا المسيحيون في مصر ضد المسلمين، والعكس بالعكس. [أنظر [www.cawu.org](http://www.cawu.org)، ثم اختر "أمثلة على تقارير AWR" والتقرير السجالي]. إنهم، بدافع الشعور بالإساءة، يلقون باللائمة على بعضهم بعضا عموما بسبب مثل تلك التقارير الإعلامية الزائفة والمسيئة التي لا تخلق سوى مزيد من الغضب. إنها حلقة مفرغة يجب كسرها.

يمكننا جميعا أن نفعل شيئا. فلنقرأ التاريخ والعلوم الاجتماعية، ولننظر بعين الشك إلى التغطية الإعلامية ولا نقبل اللغة التحريضية المسيئة بوصفها، كما يقال، حرية تعبير. إن حرية التعبير إنجاز عظيم يجعل من الممكن تقديم تنوع واسع في الآراء للجمهور. كما يُمكن من بيان أننا نختلف، وتحديد ما نختلف عليه، وسبب اختلافنا بوضوح. لكن اللغة المسيئة تسبب الألم، وتثير الغضب، وتقطع التواصل. وأسوأ من ذلك كله أن ترافق هذه اللغة المسيئة أكاذيب وتشويهات متعمدة.

يسمع المرء في البلدان العربية دعوات لفرض الرقابة، وسن قوانين تقيد حرية الصحافة، واعتماد أساليب شديدة القسوة، ذلك أكثر مما هو عليه الحال في الغرب. ويؤمن آخرون بممارسة الضغط على سلطاتهم المحلية أو السلطات الخارجية من خلال التظاهر، وأسوأ من ذلك، مثلما رأينا في أزمة الرسوم الكاريكاتيرية الدنماركية. إن كثيرا من الغضب مرتبط بعدم تعوُّد الناس على الهجوم على ما يؤمنون بأنه مقدس، وكذلك لأنهم عادة لا يعرفون كيف يردُّون، ويبدو أن الهبَّات العنيفة هي الطريقة الوحيدة للتنفيس عن غضبهم. وهكذا، فإننا نحتاج إلى الوعظ بأن ردودًا مختلفة فعالة هي ممكنة أيضًا.

إن التحيزات الإعلامية، بغض النظر عن نوعيتها، يجب عدم تجاهلها، بل يجب معالجتها. ويزعم العرب عادة أنهم بلا قوة في ضوء المكائد الغربية والإسرائيلية التي لا تقهر. ويعلق بريان وتيكر *Brian Whitaker* على الإتهام الموجه لإنقاذ ترجمات بعينها مختارة من الإعلام العربي و الذي هدفه التشويه. وهذا يقوم به معهد معهد الشرق الأوسط للبحوث الإعلامية *Middle East Media Research Institute* ، قائلاً: "ليس صعباً أن ترى ما يمكن للعرب أن يفعلوا لمواجهة ذلك. فيمكن لمجموعة من شركات الإعلام العربية أن تعمل معاً لنشر ترجمات لمقالات تعكس محتوى صحفهم بصورة أدق. ولا شك أن ذلك لن يكون خارجاً عن إمكاناتهم. لكنهم، كالعادة، قد يفضلون الاسترخاء والتذمر من مكائد عملاء المخابرات الإسرائيلية المخضرمين." (الغارديان *The Guardian* ، 12 آب/أغسطس 2002).

لقد بدأ مركز تقارب الثقافات والترجمة في معالجة هذه التحيزات من خلال إعداد ملخصات منتظمة ونقدية للصحافة، وكذلك من خلال توفير المعلومات وتبادلها:

- إعداد ملخصات منتظمة لوسائل الإعلام مترجمة بالإنجليزية عن العربية لكسر النمطية في وسائل الإعلام الغربية، وإعطاء القارئ الغربي وسيلة للوصول إلى مختلف الآراء المتنوعة في العالم العربي.
- تطوير مركز التوثيق الإلكتروني بتزويده بآلية بحث على شبكة الإنترنت في آلاف المراجعات والتقارير الإعلامية.
- إنشاء شبكة إلكترونية للتفاهم العربي الغربي: توفر تجمعاً للمصادر المتوفرة التابعة للمنظمات والناس ذوي التفكير المشابه.

- مقالات نقدية للإعلام: نظام مراقبة لوسائل الإعلام في محاولة لثني المؤسسات الإعلامية والأفراد عن الذهاب بعيدا في تحيزاتهم.
  - وضع برامج تدريبية و كذلك للطلاب, عابرة للحدود الثقافية.
- يجب أن لا نقف جانبا ونصرخ أن هناك تحيزات يميناً ويساراً. يجب أن نكون مدافعين عن السلام من خلال تعليم قيم التفاهم والاحترام بين الناس من مختلف الثقافات.